

التأثيرات التربوية و التعليمية للمشروع الثقافي الاستعماري (نموذج الإنسان في برامج التربية و التعليم)

خديجة بن فليس

جامعة . باتنة .

المقدمة:

لقد مر نظام التربية و التعليم في الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي سنة 1830 إلى غاية استقلالها سنة 1962 باعتباره اكثر القطاعات حساسية وأهمية في المجتمع بسلسلة من التغيرات التي تفرضها طبيعة المرحلة الاستعمارية من جهة و اختلاف الآراء و المشارب الفكرية لدى المشرفين على هذا القطاع من جهة أخرى كما أن التغيرات الطارئة على مناطق أخرى في العالم ألقت بظلالها على المجتمع الجزائري خاصة ما تعلق منها بقضايا التربية و التعليم. إذن فقد تم تمرير مشاريع تربوية و تعليمية مختلفة في المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة. لكل مشروع أهدافه و غاياته و أدوات تنفيذه و الأهم من ذلك كله نموذج الإنسان الجزائري الذي كان يسعى لكل مشروع تربوي إلى تكوينه من خلال برامجه و أدواته.

و يمكن تقسيم أهم المراحل التي مر بها نظام التربية و التعليم في الجزائر منذ 1830 إلى غاية 1962 إلى مايلي:

1. مرحلة ما قبل الاحتلال:

تجمع مصادر التاريخ الموثوقة، و ربما جل المصادر إطلاقا على عظمة الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي البغيض، و على مكانتها المرموقة بين دول العالم آنذاك بما امتازت به من قوة عسكرية هائلة، ذات سيطرة لا منازع فيها على البحار، الى درجة أن الدول المسماة عظمى الآن، كانت تدفع رسوما إلى الدولة الجزائرية و ضرائب مختلفة مقابل سلامة سفنها و حرية مرورها و أمنها. ويشهد مثل هذا الوضع المتميز للدولة الجزائرية على قوتها العسكرية العظمى. و يشير إلى قوة اقتصادية كبيرة لديها، و على استقرار داخلي نابع من وحدة وطنية متماسكة متينة ولا يعقل أيضا ألا ينبع مثل هذا الوضع القومي عن حالة ثقافية مناسبة. إذ أن الأعداء قبل الأصدقاء يشهدون على أن نسبة المتعلمين في بداية الاحتلال كانت تفوق مثيلتها في فرنسا، و من هنا يأتي التساؤل كيف تمكنت فرنسا من التغلغل و الاستيطان الكامل في الجزائر رغم هذه المكانة الاستراتيجية الهامة؟ و يظهر أن السبب الأساسي لتلك النكبة التاريخية يكمن في غفلة الدولة الجزائرية عن أمر مركزي هو التعليم و الثقافة بصفة عامة.

إذن فالتعليم الذي كان منتشرا في الجزائر، قبل الاحتلال الفرنسي الغاشم إلى تلك الدرجة الفائقة لما كان في فرنسا، فهو كذلك باعتبار الكم أي عدد المدارس و الأفراد الذين يحسنون القراءة و الكتابة أو غير الأميين و هو من صنع الشعب وحده تقريبا و لاسباب دينية خاصة. تتعلق بتعلم اللغة و قواعدها و علومها، و من اجل فهم الشرع و علومه، بعد حفظ القرآن و الحديث لما في الدعوة الإسلامية من حث على التعلم و إعطائه المكانة الرفيعة في نفوس المسلمين. لهذه الدواعي الدينية المؤدية إلى الرغبة في معرفة الدين و العمل

بتوجيهاته إلى الحرص على التعلم و التعليم، ورث الشعب الجزائري الاهتمام بالعلم و العلماء و أسس المدارس و المعاهد و الزوايا في البوادي و الحواضر وحافظ على درجة من التعليم عالية من حيث الكم إلا أن هذه الحركة الواسعة التي تمول عن طريق الأوقاف و الصدقات و التبرعات كانت بطبيعة الأهداف التي أنشئت من أجلها منصرفة عن علوم الدنيا جاهلة بتطوراتها في أوروبا معتبرة بان الاهتمام بهذا النوع من العلوم ليس من واجبها هذا من جهة و من جهة أخرى عدم علمهم بما يجري وراء البحار؟ إذ لم يكن بمقدورها التفتح على الحركة التربوية و الثقافية الجديدة في أوروبا لان ذلك من دور الدولة. فعدم إدراك الدولة آنذاك لأهمية التعليم و الثقافة سبب لها ضعفا استراتيجيا مكن الأعداء من اختراقها بسهولة و سبب هذا الاختراق لم يكن ضعف انتشار التعليم بل نوعية التعليم. (عبد المالك حمروش، 1991، ص61).

في حين تسلم الغزو الفرنسي ببواكير الصناعة الحربية المتولدة عن الثمار الأولى للنهضة الأوروبية الحديثة. تلك النهضة التي نقلت إلى لغاتها. و ثقافتها التراث العلمي و الفكري للحضارة العربية الإسلامية و قد كان ذلك خاصة في حواضر الأندلس و إيطاليا، و بعد الترجمة و الاستيعاب، جاء دور الإبداع و الاختراع ثم الغزو.

يمكن تلخيص هذه المرحلة في كون التعليم لم يكن تحت إشراف الدولة و لم يكن له طابع رسمي بل كان من صنع الشعب. و قد تميز التعليم بكونه مقتصرًا على العلوم الدينية دون غيرها من العلوم الأخرى. و بالتالي فقط كان هدف الناس هو التعرف إلى الشرع و ما هو حلال و حرام.

2- المرحلة الثانية من 1830-1880:

رغم كون هذه المرحلة إقتصرت على العمليات الحربية التي نظمها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري و مقاوماته تحت قيادة الأمير عبد القادر في العشرية الأولى و الثانية و لم تفكر السلطة الفرنسية إلا في تأسيس سياسة عنونها تارة بسياسة الاندماج و المكاتب العربية و التجسس و تارة بسياسة المملكة العربية ثم سياسة اندماجية أخرى ثم قانون خاص بأهل البلاد أي "قانون الاندجين" التعميسي سنة 1881، فقد سعت فرنسا خلال هذه المرحلة إلى خلق نموذج من الفرد الجزائري المندمج و الذائب في الثقافة و الديانة الفرنسية و قد اتبعت في ذلك عدة طرق نذكر منها على سبيل المثال الذكر لا الحصر: (الظاهر زرهوني، 1993، ص 14)

1- المدارس الدينية المسيحية:

تأسست ابتداء من سنة 1878 مدارس يسيرها مسيحيون و لم يعرقل أحد سيرها لتقوم مقام المدارس الرسمية وقد فتحت أبوابها للتلاميذ المسلمين في بعض المناطق الجزائرية كالقبائل الكبرى حيث سجل فيها 21 مدرسة مسيرة من طرف الآباء البيض يدرس فيها 1039 تلميذا و البيض و أولاد سيدي الشيخ وورقلة قصد التمسيح و تجريد بعض النواحي من ثوب العربية و الدين. فلا ننسى أن هذا التعليم الذي كان يدعى بأنه حر مفصول عن الحكومة له صيغة تربوية مهنية. كان في الحقيقة لا يخلو من الطابع التبشيري و التمسحي والسياسي، مشجعا من طرف السلطات الاستعمارية عكس ما كان يشاهد بالنسبة لتعليم القرآن و المبادئ الإسلامية و اللغة القومية لآبناء شعب ينتمي إلى حضارة عربية إسلامية عريقة.

2- المدارس الحكومية الثلاث:

و حتى يتمكن الاستعمار الفرنسي في الجزائر من إبعاد الجزائريين عن تعليم كتاب الله و تحفيظه في الزوايا التي كان الاستعمار يراها خطرا عليه و من تكوين أعوان في خدمته و خدمة أهدافه، أنشئت ثلاث مدارس حكومية بموجب مرسوم مؤرخ في 1850/09/30 .

كانت هذه المدارس المشيدة بتلمسان و قسنطينة و المدية أولا و حولت إلى العاصمة ثانيا سنة 1859 تهدف إلى تكوين مرشحين إلى الوظائف الدينية والقضائية و التعليمية و الإدارة فكلنا نعرف أن هذه المدارس الغير الكافية لسد حاجيات سكان البلاد في شتى الميادين أصبحت مركز وطنية و رغم انف مؤسسيها يكون فيها رجال الغد لغزو العدو بلغته و ثقافته، فحصد الاستعمار عن طريق هذه المدارس الثلاث نتائج معكوسة كان لم يتوقعها أبدا فالتحق العديد من طلابها بصفوف جبهة التحرير الوطني بعد اندلاع الثورة المباركة زيادة على الأدوار التي قاموا بها على مر السنين في المدارس و المحاكم و المساجد و الأوساط الشعبية.

3- المدارس المسماة (بالعربية الفرنسية):

أسست بموجب المرسوم المؤرخ في 1850/07/14 أربعون مدرسة ابتدائية لا أكثر. تحتوي كل واحدة منها في غالب الأحيان على قسم واحد فبنيت في فترة دامت 24 سنة تقريبا من 1850 إلى 1873 أي أقل من مدرستين كل سنة. الشيء الذي يدل على عدم استعداد المسؤولين الفرنسيين لتقديم فرص التعليم لصالح المواطنين الجزائريين خلاف ادعاءاتهم الباطلة الكاذبة ثم اغلق معظمها اثر

حوادث 1871 لأسباب سياسية و انتقاما من الشعب الجزائري الثائر ضد الاستعمار الظالم ثم ألغيت نهائيا سنة 1883 .

و يجدر بالذكر أن المعمرون قد أعلنوا بأنه من الحق أن يستفيد الأطفال من تعليم مدرسة وضعت لأشخاص متقدمين ينتمون إلى حضارة لا لأشخاص بائسين متأخرين حاربوهم و شاركوا في ثورات ضدهم كما صرحوا بأنه في حالة تعميم التعليم لفائدة أطفالنا لا يستبعد أن ينظم سكان البلاد مظاهرات يهتفون أثناءها بعروبة الجزائر زيادة على المصاريف الباهضة التي تكلفهم هذه المحاولة.

فقرر الشعب الجزائري من جهته الإضراب عن هذه المدرسة الفرنسية و عدم تسجيل انبائه لأنها لا ترمي إلى تحقيق أهدافه و لا تلائم تقاليده لأنها تسعى إلى فرنسة و تمسيح فلذات أكبادنا.

إذن فقد سعى الاستعمار الفرنسي خلال هذه المرحلة إلى الشروع في تمسيح الفرد الجزائري و فرنسته، و قد تميزت بالتدرج في إلغاء التعليم القراني.

3- المرحلة الثالثة من 1882 - 1930 :

بعد الفتور الظرفي للثورات الجزائرية ظهرت نزعة لتوسيع التعليم لفائدة الجزائريين فأعطيت له حسب ما صرح به " انطلاقا جديدة " ابتداء من 1831 و قد شكلت بهذا الصدد لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسي ترأسها جول فيري المعروف بأفكاره التوسعية و أفكاره العلمانية اللادينية، و قد كلفت هذه اللجنة بدراسة القضايا الجزائرية السياسية و التعليمية و تظهر الإحصائيات أن عدد التلاميذ الجزائريين المسجلون قليل بالمقارنة مع أبناء المعمرين. و حتى التلاميذ

الجزائريين المسجلين يهربون من هذه المدارس لان أولياءهم يرون أن برامجهم غريبة عن القيم العربية الإسلامية.

الجدول (1) يوضح عدد التلاميذ المسجلين في المدارس من الجنسيتين

الجنسية	عدد الأطفال في سن الدراسة	عدد المسجلين	النسبة
جزائرية	633.190	24.565	3.84%
فرنسية	93.531	78.531	84%

هذا بالنسبة للتعليم الابتدائي، أما بالنسبة للتعليم الثانوي فكان لا ينتمي إليه إلا أبناء عملاء الاستعمار، و هو بالتالي يخص أقلية محصورة في بعض المناطق. و خلاصة فان إجبارية التعليم المزعومة و المقررة سنة 1883 لتطبق على الأطفال الجزائريين كانت غير مطبقة باتم معنى الكلمة بل كانت محاربة من طرف المعمرين بوسائل نذكر منها مايلي:

1- قلة المعلمين : عدد المعلمين الجزائريين كان قليل بالمقارنة مع المعلمين الفرنسيين الذين كانوا يعيشون في المناطق الشمالية فقط .

2- أن المعلمين الفرنسيين أ توا إلى الجزائر ليقوموا برسالة استيطانية أكثر منها تربوية تعليمية .

3- العمل على نشر سياسة التجهيل و البغي و الطغيان و الأمية كي لا يتمكن الجزائريون من مطالبة بالاستقلال .

4- إدعاء المعمرين بان إنشاء المدارس لصالح أبناء الجزائر يستلزم نفقات باهضة يتعذر على ميزانية البلاد تحملها ، و قد أنشئت أحزاب فرنسية " كالحزب ضد العرب " تعارض كل إجراء يحاول أن يحسن وضعية التعليم و تنظيم بواسطة صحفها و مجلاتها و كتبها حملات ضد تثقيف الجزائريين معتقدين أن التعليم يسبب تمرد في أوساط الأهالي ، و قد استمرت سياسة التجهيل فمنهم من سعى لتثبيت هذا الجهل و الأمية و منهم من كان يريد أن يتوصل إلى إدماجهم و فرنسيتههم إلى أن وجد هؤلاء المتنازعون حلا وسطا حول التعليم في بلادنا بوضع برامج خاصة بأبنائنا لا تشمل جميع العلوم و الفنون و لا تاريخ بلادنا فاقصر التعليم على القراءة و الكتابة لانه كما قال أحد النواب في البرلمان الفرنسي سنة 1891 : " إن تعليم القراءة و الكتابة لاهل البلد يعتبر من الأشياء الكمالية و تعليم أكثر من هذا، يجعلهم في درجة لا تليق بهم ". كما صرح بعض مفتشي التعليم الابتدائي آنذاك : " انه لا حاجة إلى وضع تعليم شامل للجزائريين الصغار لأننا نود أن يصبحوا علماء متعطلين مرتين في درجة لا يستحقونها لان المناصب المرموقة محجوزة كلها للفرنسيين لا غير " ولقد كان التعليم الخاص بهم ذو طابع عملي أو زراعي ليوفر بكثرة حسب اعتقاد السلطة الفرنسية. اليد العاملة التي يحتاج إليها المعمرين.

نستطيع أن نقول في الخلاصة بان الجالية الفرنسية كانت من 1880 إلى 1920 تحارب عمدا أو قصدا و بجميع الوسائل الموضوعية بين أيديها تعليم الصغار الجزائريين و تنظيم حملات واسعة النطاق ضد العروبة و الإسلام و تنتقد بحدة وطنية الشعب الجزائري و تقدمها كمؤامرة ضد الشعب الفرنسي و هذا ليس بغريب (الطاهر زرهوني، 1993، ص 21).

و رغم هذا الوضع المزري الذي حاولت فرنسا وضع الجزائر فيه إلا أن الشعب الجزائري ظل خلال هذه الفترة مؤيدا للحركات الوطنية في مصر، تونس، تركيا... الخ، كما أن زيارة كل من زعيم الحزب الوطني المصري و العلامة الأستاذ الشيخ محمد عبده إمام النهضة العربية الإسلامية إلى الجزائر قد نتج عليها نشاطات إصلاحية كانت بمثابة انتفاضات للشعب الجزائري ليقوي عزيمته لاسترجاع سيادته و حريته.

4- بوادر النهضة الحديثة : 1930 - 1954 :

انطلاقا مما سبق من انتشار النشاطات الإصلاحية في أوساط الشعب الجزائري أنشئت جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس و زملائه، و قد عرفت هذه الجمعية بمجهودها التربوي و الفكري و المحاولات التطبيقية في مجال التربية و التعليم في سبيل إصلاح هذه الأمة التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي الذي حرم أغلبية الجزائريين من نور العلم (مصطفى عشوي، 1991، ص 11).

لقد أدرك بن باديس بفطنته و بصيرته أن التعليم و التربية هما أساس الإصلاح والنهضة، و قد تفتن إلى هذه الحقيقة منذ أن اجتمع مع الشيخ البشير الإبراهيمي بالمدينة المنورة حيث اتفقا على تربية النشء على الأفكار الصحيحة حتى و إن كان مع علم قليل فليس شرطا أن نتوسع في العلم.

و يقول الإمام بن باديس في هذا الشأن : " العروبة و الإسلام و العلم والفضيلة هذه أركان هضتنا و أركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " ومن شروط الإصلاح عند الإمام صلاح العلماء الذي هو شرط لصلاح المسلمين و شرط صلاح العلماء صحة تعليمهم.

و قد كان القصد من إنشاء الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية و الجهل ونشر الأخلاق الفاضلة و المعارف العربية الفرنسية و الصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين (سجل مؤتمر ج.ع.م.ج سنة 1982 ، ص 65) و ذلك بتأسيس مكتب للتعليم، معمل للصنائع، تأسيس نادي للمحاضرات، إرسال تلاميذ على نفقتها إلى الكليات و المعامل الكبرى، كما كان الإمام بن باديس فكر في إنشاء كلية دينية إسلامية بالجزائر. كما سعت الجمعية إلى إصلاح أساليب التعليم باستحداث القسم المكتبي و المسجدي في التعليم، و قد زاد إقبال الطلبة على دروس الإمام و زملائه من جميع مناطق البلاد و انتشر هؤلاء الطلبة في أنحاء ربوع البلاد لنشر التربية و التعليم و نحو الأمية و بناء الشخصية الإسلامية في مدارس حرة تابعة للأهالي أو لجمعية التربية و التعليم الإسلامية أو في داخل المساجد.

و قد كانت الخطة المعتمدة من طرف ابن باديس في توعية الناس قائمة على التربية و التعليم باستعمال كل الوسائل المتيسرة (الصحف، المساجد المدارس،...) و تتجلى عبقرية الرجل في اعتماده على استراتيجية وفق مراحل مدروسة (مصطفى عشوي، 1993 ، ص 17).

إذن فقد أصبح التعليم خلال هذه المرحلة و من خلال نشاط الإمام عبد الحميد بن باديس و جمعيته هادفا إلى تجسيد مقومات الشخصية الجزائرية من عروبة، إسلام، جزائرية. و قد تعرضت الجمعية للكثير من الصعوبات و العقبات من طرف المستعمر الفرنسي.

5- الفترة من 1954 - 1962 :

لقد واصلت الجمعية عملها متنكرة بكل مساعيها و أعمالها و أقوالها للاستعمار الفرنسي، مسيرة لرغبة الأمة في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مليوني طفل عربي مسلم من خلال تشييد مدارس أخرى كما قامت بإرسال مئات من الطلبة الجزائريين للدراسة بالشرق العربي.

و باندلاع الثورة المجيدة 1954 كثفت فرنسا مجهوداتها و حملاتها في مكافحة الثقافة العربية الفرنسية و إلغاء استعمال اللغة العربية كلغة رسمية ثانية في المحاكم و المصالح التابعة للحالة المدنية كما أساء استخدامها في المؤسسات التعليمية حيث يقوم بتدريسها أساتذة أجانب لا يحسنونها كما رفضوا تعليمها كمادة إجبارية في مدارس الجزائر و تعويضها باللغة الفرنسية و قد صرح المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون " إن اللغة الفرنسية أصبحت أداة للفكر الإسلامي لا من الناحية السياسية فحسب بل و في الناحية الدينية " و هو المطلب الذي نادى به الاندماجيون. و مع اندلاع الحرب التحريرية أصبح هم الشعب الجزائري هو القضاء على الاستعمار و استرجاع السيادة إلى أن تحقق النصر. و قبل خروج فرنسا من الجزائر عمدت إلى إغلاق المدارس الحرة و سجن معلموها و تشريد

90% تلاميذها فتفتشت بذلك الأمية حتى بلغت أكثر من 90

و في الأخير يمكن القول بان المشروع الثقافي الفرنسي الاستعماري قد انقسم إلى مراحل في مجال التربية و التعليم.

1. السعي إلى تمسيح الشعب الجزائري من خلال البرامج التعليمية المقدمة في المدارس و في هذا الصدد يصرح الكاردينال لافيجري " علينا أن نخلص هذا

الشعب من قرانه.... فان واجب فرنسا تعليم الأطفال و الجزائريين عموما

الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدا عن العالم المتحضر".

2. فرنسة الشعب الجزائري من خلال البرامج التعليمية أيضا.

3. محاولة دمج الجزائريين في المجتمع الفرنسي بحقوق اقل و واجبات اكثر من

خلال نخبة مثقفة مزيفة كونتها ببرامج تعليمية خاصة.

4. بعد العجز عن تحقيق مساعيها قررت اتباع سياسة التجهيل من خلال حرق

المدارس و تشريد المعلمين و التلاميذ.

و بالمقابل ظهرت مساعي من طرف أبناء الجزائر خاصة جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين لمحاولة التصدي لهذا المشروع الاستيطاني الخطير من خلال نشر الثقافة

العربية الإسلامية و القضاء على المظاهر السلبية في المجتمع الجزائري و التشجيع

على الجهاد المادي و المعنوي و خلق مواطن جزائري معتر بجزائر يته و قوميته

العربية و دينه الإسلامي.

المراجع المعتمدة:

- 1 - الطاهر زرهوني - التعليم في الجزائر قبل و بعد الاستقلال - دار
موفم للنشر الجزائر 1993
- 2 - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقى
بالجزائر - دار الكتب الجزائر 1982
- 3 - عبد المالك حمروش - التربية و الشخصية الجزائرية العربية
والاسلامية - باتنة 1991
- 4 - مصطفى عشوي - المدرسة الجزائرية إلى أين ؟ - دار الأمة للنشر
الجزائر 1991